سينما

«لوبو» و«المخطوف» عن «مُصادرة» أطفال
تفاوت سينمائي في نقد حالة

فيلمان يتناولان التطهير العرقي، المتمثّل بخطف أطفال، للقضاء على نسل أهل وجماعة، والقصّتان حقيقيتان، تحدثان في سويسرا والفاتيكان

محمد هاشم عبد السلام

بينما كانت أوروبا تُحارب النازية، وتقضي على الأفكار اللاإنسانية، كانت سويسرا، المُحايدة والديمقراطية والمُتقدّمة، تمضي على نهج مُغاير ومتطرّف للغاية، يرقى إلى مرتبة التطهير العرقي. العنصري، ضد أطفال أقلية الـ«يانيش» البدوية، المُنتشرة في أرضها. الـ«يانيش» أقلية رئيسية، جرمانية الجذور، مكوّنة للنسيج الأوروبي العريض، ومنتشرة في ألمانيا والنمسا وفرنسا وهولندا أيضاً، ولها لغتها الخاصة، وعاداتها وتقاليدها وتراثها العريق.

في أوائل القرن الـ20، ذاعت نظريات لتحسين النسل، أطلقها باحثون، معظمهم إنكليز وفرنسيون، بهدف نقاء البشرية، عبر القضاء على أي شخص يُعتَبر عبئاً، بسبب خصائصه الجسدية وأصله وأسلوب حياته. حينها، رأت السلطة السويسرية أنّ الـ«يانيش» خطرون على المجتمع، تماماً كالغجر، فلم تتردّد في اقتراف جريمة إنسانية كاملة، أخلاقية وقانونية ونفسية وعرقية، ضد جنس وتراث ولغة وثقافة وأفراد، بإطلاقها برنامج «أطفال الشوارع»، بدءاً باتّهام آباء هؤلاء الأطفال بـ«الجنون» أو «الاختلال العقلي»، ثم مصادرة الأطفال وتجريدهم من أسمائهم الحقيقية، بعد إيداعهم في دور حضانة وملاجئ ورعاية نفسية، وفي السجون أحياناً. كما منحتهم ألقاباً مُغايرة، تُناسب حياتهم الجديدة. وجرى تعليم بعضهم وتأهيلهم، وطرحهم للتبنّي لمن يرغب من الأسر الثرية. أمّا الغالبية، فوُزّعت على مزارعين، استُغلّوا في حقولهم، كعمالة رخيصة.

> أوروبا تحارب النازية وسويسرا والفاتيكان تمارسان التطهير

الهدف الرئيسي لبرنامج «أطفال الشوارع»، والمؤسّسات القانونية الداعمة له، كامنٌ في استئصال شعب الـ«يانيش»، أو الغجر البيض، واجتثاث جذورهم، كي لا يُفسدوا الطبيعة المنظّمة والمتحضّرة للمجتمع السويسري. الطريقة المُثلى للتخلّص منهم تقضي بتفكيك بنيتهم العائلية والاجتماعية والثقافية، ومُصادرة أطفالهم، بحجّة الخوف على السلامة الأخلاقية للأطفال، بإلغاء قاسٍ ومُتطرّف لأبسط حقوقهم. ورغم إيقاف الحكومة السويسرية هذه الممارسات، الممتدّة نحو نصف قرن، واعتذارها عنها، وتقديم تعويضات بدءاً من أواخر القرن الماضي، ظلّ مصير هؤلاء الأطفال مجهولاً. كما لا يُعرف، تحديداً، عدد أطفال الـ«يانيش»، الذين «صادرتهم» السلطة السويسرية من عائلاتهم. التقدير الحالي يُشير إلى أكثر من ألفي شخص، بينما يبلغ عدد أفراد الـ«يانيش» الآن، في سويسرا، نحو 30 ألفاً، فقط.

عن هذا الظلم التاريخي، والممارسات المستوجِبَة صنع أكثر من فيلم، تدور حبكة «لوبو»، للإيطالي جورجيو ديريتي، الذي تبدأ أحداثه التمهيدية في بداية الحرب العالمية الثانية. يتمّ التعرّف إلى فنان الشوارع الـ«يانيشي»، لوبو ميسر (فرانز روغوفسكي)، البدائي المتنقل من مدينة إلى أخرى، مع زوجته وأطفاله الـ3، في عربات تجرّها الخيول، لتقديم عروض فولكلورية في الشوارع، وكسب بعض الرزق، إلى أنْ يتمّ إيقافه بغرض التجنيد الإجباري. بعد اعتراض، ينصاع لوبو ميسر، بالقوة، لأداء الخدمة، جندياً يحمي الحدود من الغزو النازي المحتمل. بعد فترة، يتلقّى أخباراً مُرّة، إذْ «صادرت» الشرطة أطفاله الـ3، وتوفيت زوجته في محاولتها منعهم. يحثّه ابن شقيقه على ترك الجيش، والفرار معه إلى فرنسا، لكنّه يرفض مغادرة سويسرا، حتّى يعثر على أطفاله، ويستعيدهم. أثناء ذلك، يودع أولاده، المُصنّفين «أطفال شوارع»، في مؤسّسات خاصة، تفصل بينهم، بعد منحها إياهم هويات وأسماء جديدة. كما علّمتهم وجرّدتهم، حرفياً، من هويتهم الثقافية ولغتهم، قبل طرحهم للتبنّي.

في حراسته الجبال، تعرّف لوبو إلى مُهرّب نمساوي، يُدعى برونو رايتر (جويل بسمان)، يريد تهريب أموال أثرياء يهود ومجوهراتهم إلى سويسرا، عبر الممرات الجبلية، ويحتاج إلى مساعدته. ذات ليلة، يقتله لوبو بوحشية، ويسرق سيارته وغنائمه وهويته. ثم يُعيد اختراع نفسه كصائغ وتاجر نمساوي ثري. في زيوريخ، تتوسّع علاقاته، ويبدأ اختراق المجتمع الراقي محاولاً اكتشاف السجلات الخفية المتعلّقة بأماكن أطفاله، بغطاء التظاهر بالتبرّع السخي لجمعيات خيرية ومؤسّسات مسؤولة عن «أطفال الشوارع».

بعد تفتيش المدارس ودور الأيتام، وعناء البحث، يفشل في تحقيق هدفه، لكنّه ينجح أكثر في النيل من أكبر عدد من نساء الطبقة الراقية، بعد أنْ أصبح مُغوياً متسلسلاً، إنْ جاز التعبير، مُستخدماً ثروته وسحره وملابسه الأنيقة، ومهاراته، وإجادته أكثر من لغة، للتقرّب من زوجات عُلّية القوم. بعد أنْ أصبح، من دون قصد، مُغوّياً لا يُقاوَم، يُطوّر خطّةً لتلقيح أكبر عدد من النساء، كإجراء انتقامي مُضاد للسياسة العنصرية للحكومة، وللطبقة ذات الآراء المُتطرّفة الأنانية.

مسلسل الخداع الطويل هذا، غير الواضح وغير المفسَّر جيداً في الفيلم، الذي ربما يجده البعض غير مُؤثّر، ويُضعِف الإيقاع وقصّة أطفاله المفقودين، مهمٌّ، بحسب عنوان الرواية الأصلية وصميمها، المُقتَبس عنها الفيلم: «المُلقّحُ» (2004)، للأديب ماريو كافاتوري، ومقولة أحد كبار حكماء الـ«يانيش»، الذي حذّر من انقراض مجتمعاتهم، وضرورة مواجهة الأمر. بسبب يأسه من تحقيقها، يتولّى لوبو تحقيق العدالة بطريقته الخاصة.

«لوبو»: سويسرا والتطهير العرقي (الملف الصحافي)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

عملان عن امرأتين في «سلا» المغربية
تكثيف حكاية وهيمنة ممثلة على الشاشة

محمد بنعزيز

امرأتان، جورجيّة وصينية، وحيدتان جميلتان، تكدحان لكسب رزقهما، وتُعامَلان بعداءٍ من محيطهما. إحداهما عزباء، والثانية متزوّجة من عدوّ. فاتنتان، تُحبّهما الكاميرا. إحداهما تسكن قريةً، والأخرى تسكن مدينةً عملاقة. في الحالتين، اخترقت الممثلة مزاج الشخصية التي أدّتها، وحملت الفيلم على كتفيها في 90 دقيقة، بكفاءة. هذا الاختراق العميق لمعيش النساء يُصنّف فيلماً ضمن سينما المرأة. عُرض الفيلمان في مسابقة الأفلام الطويلة، في الدورة الـ16 (13 ـ 18 نوفمبر/تشرين الثاني 2023) لـ«المهرجان الدولي لفيلم المرأة بسلا» (المغرب).

الجورجيّة امرأة عزباء عذراء (إيكا تشافيليشفي)، تبلغ 48 عاماً، وتعيش أول قصّة حبّ. في Blackbird، Blackberry، لإيلين نافاڤياني (2022)، تُدير دكّاناً في قريةٍ معزولة ميتة. استخدمت المخرجة كادرات عامة، تظهر فضاء واسعاً، لتكون رتابة الزمن مُبرّرة. هناك، ينشغل القرويون بمشاكل جيرانهم، أكثر من مشاكلهم. كانت موضوعاً لنكات جاراتها وتعليقاتهنّ. جارات يلعبن ورق الشدة، ويُعلّقن على الأخريات. النميمة أرخص تسلية. «النساء هنّ الجحيم اليومي. الرجال جالسون في المقاهي». ترفع صورتَي أبيها وشقيقها، في بيتها، يوماً واحداً كل أسبوع. أي اليوم الذي ربما يزورانها فيه.

تشعر بحبّ أول وأخير. إنّه حبّ الخريف الأخير لسائق شاحنة عابر. هل تستثمره، أم تُبدّده؟ من يتشجّع يحصل على جائزة، وتوبيخ. فجأة، يزورها والدها وشقيقها، حين عرفا أنّها وقعت في الحبّ، فجاءا لتوبيخها. فيلمٌ بإيقاع بطيء. هذه سينما المُخرج المُؤلّف. إيقاع بطيء، لكنّه غير مملّ، لأنّ قوة أداء الممثلة لمشاعرها، في عزلتها القاسية، يُنقذ الفيلم. هناك، لا تفعل شيئاً. تزرع في اللقطة مسكوتاً عنه، يُخاطب لاوعي المتفرّج. امرأة وحيدة. فهمت الممثلة السيناريو وأدّته باقتصاد وتركيز. استحقّت تشافيليشيفي جائزة أفضل أداء نسائي، مناصفة مع ليلي غلادستون، عن دورها في Fancy Dance لإيريكا تْرامْبلاي (2023).

> امرأتان وحيدتان وجميلتان تُحبّهما الكاميرا السينمائية

المخرجة الصينية هان شوآي: «ليلة خضراء» (تويباس شفارتز/فرانس برس)

امرأة مُعتزّة باستقلاليتها. لا تشبه الصورة النمطية للمرأة، التي لا تطلب من الدنيا إلا زوجاً، وحين يأتي، تطلب منه سكناً وطعاماً وذهباً، وخدمة أمها. ثمن الاستقلالية أنْ تبقى وحيدة. لا تطلب الشفقة. إنّها راضية بما لديها، في بيئةٍ مليئة بأشجار كثيرة.

في Green Night، للصينية هان شوآي (2023)، تعيش امرأة صينية في مدينة سيول، مع زوج كوري يعاملها كما تعامل الصين كوريا الجنوبية. تصبر المرأة. تنتظر أنْ يعاملها الزوج بحنان، كما تعامل الصين كوريا الشمالية. تعمل المرأة في مجال صعب، يُسبّب لها مشاكل في حياتها. تتعرّف على شابّة، لها طبع مناقض، فيتشكل ثنائي: عاقلة ومغامرة، حذرة ومندفعة، مخطّطة ومزاجية. تمضيان الوقت معاً. ليس لديهما ما تخسرانه، غير سلامتهما الجسدية. تغامران، وتجدان الحلول فجأة.

تحلّ مآزق كثيرة صدفةً، والصدفة ليست حافزاً درامياً. يُعثر صدفة على ما يقود إلى كشف سرّ. الصدفة وسيلة إنقاذ مؤقّت. ربما تفيد مرّة، كما مع كنز «فاريا» في رواية «كونت دي مونت كريستو» (1844) لألكسندر دوما. لكنّ تكرار الصدف، لحلّ العقد، يضعف مصداقيتها. في مجتمع نسوي، فقدت صورة الرجل، المعتدي جنسياً، مصداقيتها، لأنّ قانون العرض والطلب الجنسيّين يؤدّي فعله. عملياً، تُفضّل البطلة أنْ تتسامح مع مغتصبها، على أنْ تكون مع امرأة مثلية جنسياً، تلتهم النقانق في كلّ وجبة، وعلى وجهها مسحة قرف. ليس الأمر شذوذاً، بل تقارب شخصيات، قَهَرتها الوحدة.

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

أفلام جديدة

■ Un Silence لجواكيم لافوس، تمثيل إيمانويل دوفوس (Corbis-Getty) ودانيال أوتوي: قصة حقيقية عن المحامي البلجيكي فكتور هيسّل، المتّهم بالتقاطه صوراً إباحية للأطفال. لكن الفيلم يروي الحكاية بعيني زوجته أرستيد، التي تبدأ بالتحرّك بعد 25 عاماً على صمتها، فعائلتها تنهار وتتفكّك.

■ King's Land لنيكولاي آرْسِل، تمثيل مادس ميكلسن وأماندا كولّن (Corbis-Getty): إنّه عام 1755، في الدنمارك. يُكلَّف الملك عسكرياً يُدعى لودفيغ كالين بغزو منطقة غير صالحة للزراعة، لإنشاء مستعمرة، مقابل نيله لقباً ملكياً يحرّره من الفقر. لكن سيّد المنطقة، عديم الرحمة، يريد خنق مشروعه. فهل يجلب العمل لكالين ثروة وشرفاً، أم يُكلّفه حياته؟

■ Mambar Pierette لروزين مُباكام (فرانس برس): بياريت خيّاطة مجتهدة في بلدتها، التي تتعرّض لطوفان يُهدّد ورشتها بالغرق. مع اقتراب كل عام دراسي، يزداد عملها، فالجميع يريدون ملابس جديدة ورسمية لأولادهم. إنّها ليست خيّاطة فقط، فعلاقتها بناس البلدة جيدة للغاية، وأولادهم يحبّونها. الطوفان تحدّ بواجهها، فتجهد في الصمود والتغلّب عليه.

■ American Fiction لكورد جفرسن، تمثيل جفري رايت وتراسي إيلّيس روسّ (WireImage) وسترلينغ ك. براون: تيلونيوس إلّيسون، الملقّب بـ«الراهب»، أستاذ الأدب في الجامعة، لكنّه كاتبٌ مُحبَط أيضاً، فالناشرون يرفضون مخطوطاته دائماً، ويقترحون عليه كتابة أعمال عن الأفروأميركيين. يبدأ كتابة نصٍّ ساخر، يُصنّف في فئة «المحاكاة الساخرة». تلك الرواية الجديدة له سينشرها باسم مستعار، وستُحقّق نجاحاً كبيراً، خاصة بين المثقفين البيض.

■ The Holdovers لألكسندر باين، تمثيل بول جيامتي ودومينيك سيسّا ودافين جوي راندولف (Getty): في شتاء 1970، أصبح بول هونهام أستاذ التاريخ القديم في مدرسة ثانوية للبنين في نيوانغلاند. متحذلق ومتقشّف، لا يحظى بالتقدير إطلاقاً من طلّابه وزملائه. مع اقتراب عيد الميلاد، يضطرّ إلى البقاء في الحرم الجامعي، للإشراف على عدد قليل من الباقين هناك، ثم يبقى أنغوس، التلميذ اللامع والأول في صفه، والموهوب والمتمرّد. هناك أيضاً ماري، الطبّاخة، التي فقدت ابنها في فيتنام، وباتت تبتعد عن الاحتفالات.